

حوار مع الشيخ راشد الغنوشي^(*)

أجراه: أحمد منصور

إعلامي مصري يعمل في قناة «الجزيرة» القطرية.

كان صعود الحركات الإسلامية إلى الحكم في كل من مصر وتونس بعد الثورات التي اندلعت فيهما مثار اهتمام عالمي وسياسي واسع، ولا سيّما أن الأنظمة التي حكمت هذه البلدان طوال ستين عاماً كانت تشن حرباً ضارية ضد الهوية الإسلامية حتى بلغت في تونس حد تجفيف الينابيع. ومع قيام وزير الدفاع المصري عبد الفتاح السيسي بانقلاب على نظام حكم الإخوان المسلمين في مصر في الثلاثين من حزيران/يونيو الماضي رأى المراقبون أن السيناريو المصري يمكن أن يتكرر في دول الثورات العربية الأخرى، وعلى رأسها تونس التي كانت تحكمها حركة النهضة. ورغم دخول تونس في مخاض عسير إلا أن النهضة سلّمت الحكم بمحض إرادتها إلى حكومة تكنوقراط تعهدت بإتمام إجراءات المرحلة الانتقالية قبل نهاية العام الجاري ٢٠١٤.

ولد الشيخ راشد الغنوشي في الجنوب التونسي عام ١٩٤١؛ تلقى تعليمه الجامعي في جامعة دمشق وفي السوربون في باريس، والجامعة التونسية في تونس، شارك في تأسيس الجماعة الإسلامية عام ١٩٧٩ وانتُخب أول رئيس لها. وفي العام ١٩٨١ غيرت الجماعة اسمها إلى حركة الاتجاه الإسلامي حيث طالبت السلطات التونسية باعتمادها حزباً سياسياً، إلا أن رد بورقيبة جاء على هذا الطلب بحملة اعتقالات ومحاكمات واسعة لأعضائها. وفي العام ١٩٨٨ أعادت الحركة تشكيل نفسها في صيغة أخرى هي حركة النهضة حيث حققت اكتساحاً واسعاً في الانتخابات البرلمانية التي أجريت في تونس في عهد زين العابدين بن علي عام ١٩٨٩. لكن بن علي زور الانتخابات وقرر استئصال حركة النهضة عبر اعتقال أعضائها وإصدار أحكام قاسية في حقهم، وظل قادة النهضة وعلى رأسهم الغنوشي بين السجون والمنافي حتى أطاحت الثورة التونسية بنظام بن علي، فعاد الغنوشي من المنفى ليحكم بينما هرب بن علي من الحكم إلى المنفى.

سنقيّم في هذا الحوار مع زعيم حركة النهضة التونسية الشيخ راشد الغنوشي تجربة الحركة في الحكم والفوارق بين ما جرى في مصر وما جرى تونس، ونتناول نظرة الحركة إلى مستقبل تونس.

(*) في الأصل هذه المقابلة متلفزة عرضت ضمن برنامج «بلا حدود» على قناة «الجزيرة» بتاريخ ١٩ شباط/فبراير ٢٠١٤.

١ - حركة النهضة والتنازل عن السلطة

■ لماذا تنازلتم عن السلطة رغم أنكم جئتم إليها بشرعية الانتخابات وإرادة شعبية؟

□ بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله. نحن فعلاً تنازلنا عن السلطة، وهي سلطة منتخبة وتتمتع بشبه أغلبية في المجلس الوطني التأسيسي في البرلمان وهي مدعومة من الشارع، ليس لأننا زاهدون في السلطة، فكل الأحزاب تؤسس من أجل أن تحكم لا من أجل أن تتفرج على الحكم. لكن عندما قابلنا بين مردود بقائنا في الحكم ومردود خروجنا من الحكم وجدنا أن مردود بقائنا في الحكم معناه أن تونس لن يكون لها دستور، يفخر به كل التونسيين، كون المعارضة انسحبت من البرلمان في إثر اغتيال المرحوم البراهمي، واشترطت أنها لن تعود إلا باستقالة الحكومة بل بحل البرلمان نفسه. وقد استغلت الجماعات الإرهابية هذه التجاذبات لتنفذ عدة أعمال إرهابية في البلد. إلى جانب ذلك، كانت هناك انعكاسات للحالة المصرية، فالانقلاب الذي حصل في مصر انعكس على الوضع التونسي الذي شهد مزيداً من التوتر، وأصبحت المعادلة كالتالي: إما أن نبقي في الحكم ولدينا شرعية في أن نبقي في الحكم، ولكن لن يكون هناك دستور لكل التونسيين، بل كان يمكن أن يكون هناك دستور للنهضة وحلفائها لا لكل التوانسة، في حين نحن نريد دستوراً لكل التوانسة؛ وإما أن لا نبقي في الحكم ويكون هناك دستور لكل التونسيين. بمعنى آخر إما أن نبقي في الحكم ويبقى المسار الانتقالي، الديمقراطي، متعثراً، بسبب تشبثنا بالبقاء في الحكم وإما أن نقبل المبادرة التي قدمها المجتمع المدني ممثلاً بأربع منظمات أساسية خلاصتها أن نحيد الحكومة لكي تقود إلى انتخابات لا يشك فيها أحد بوصفها حكومة محايدة وأن يعود النواب المنسحبون إلى البرلمان ليواصلوا المشاركة في عملية وضع الدستور. وبالتالي، نحن اخترنا الديمقراطية واخترنا الدستور، على بقائنا في الحكم.

■ تقول تقارير كثيرة إن معارضة عارمة كانت موجودة ضدكم داخل حركة النهضة بسبب هذا القرار؛ فلماذا لم ترضخوا لهذه المعارضة ما دامت الحركة تعتمد الشورى وتعترف بالرأي الآخر في طريقة اتخاذ القرار؟

□ هذا صحيح، كان هناك معارضة؛ فأى حزب منتخب هو غير معتاد أن يترك السلطة إلا بانتخابات أخرى يفقد معها الأغلبية. أما أن يترك حزب منتخب السلطة هكذا فهذا أمر غير مألوف، لأن السلطة لم تُسحب منا بانتخابات ولا بثورة ولا بانقلاب، وإنما بوعي منا بأن بقاءنا في السلطة معناه أن الخيار الديمقراطي لن ينجح في تونس ومعناه توفير فرص للإرهاب وتوفير فرص لمزيد من التمزق الشعبي. لذلك يمكن أن نكون قد خسرنا السلطة لكننا ربحتنا تونس، ربحتنا الديمقراطية، ولا بأس إذا كان الأمر كذلك.

■ ألم تخسروا صفوفكم وقواعدكم التي اعترضت على هذا الأمر؟ ألم يحدث انشقاق وانقسام داخل النهضة بسبب هذا القرار؟

□ لا، لم نخسر أحداً، ولم يحدث أي انشقاق، لأن السياسات يُحكم عليها بالنتائج، والتونسيون اليوم مرتاحون جميعاً، فتونس الآن تعيش حالة فرح وحالة هدوء.

■ هم فرحون لأنكم تركتم السلطة لا لأنكم حققتم نتائج.

□ لا، ليسوا فرحين لأننا تركنا السلطة، بل إنهم فرحون بالنهضة لأنها ضحّت، لأنها تنازلت من أجل تونس؛ وإذا كان هذا يعدّ خسارة للنهضة وربحاً لتونس فلا بأس، فلتربح تونس ولتخسر النهضة. فعندما يربح الوطن معنى ذلك أن الجميع رابحون؛ لذلك التوانسة كلهم الآن مرتاحون وفي حالة احتفال بحصولهم على أعظم دستور في تاريخهم؛ هم محتفلون لكونهم استطاعوا الوصول إلى وفاق وطني عبر حوار دام ستة أشهر. كنا نتحاور وكثيراً ما كان حوارنا يصل إلى حافة الهاوية، وقد توقف أكثر من مرة. كان هناك ٢٢ حزباً تتحاور وهي مختلفة في كل شيء تقريباً ولكنها متفقة على أن الخيار الديمقراطي لازم نجاحه، وهي متفقة على أن تونس يجب أن تربح. في النهاية حققنا نجاحات مهمة جداً.

■ لكن أنت الآن تؤكد أنكم تركتم السلطة بمحض إرادتكم ومن أجل تونس؛ لكن

الباجي قائد السبسي رئيس نداء حركة تونس، قال في حوار في الأول من شباط/فبراير مع Middle East Online إن حركة النهضة لم ترحل عن الحكومة بمحض إرادتها وإنما رحلت تحت الضغط السياسي، مشيراً إلى أنه قام بدور في إقناع الحركة بأنه في حال رفضكم الرحيل وفق خارطة الطريق التي ترعاها أربع منظمات فإنكم سترحلون بالقوة.

□ هذه لغة سياسية، ولا يُنتظر من سياسي معارض أن يمدح معارضه. وهذا أمر مفهوم؛ ولكن الذي يشهد به الجميع هو أن حالة الحوار هي التي انتصرت، بما في ذلك الحوار مع نداء تونس والحوار مع الجبهة الشعبية. وبالتالي ما قاله السبسي يعبر عن مرحلة كان التجاذب فيها شديداً بين كل الفرقاء السياسيين؛ ونحن التونسيين على أي حال نتحاور، وفي كثير من الأحيان يكون حوارنا شديداً، ولكن لا نتحاور بالرصاص وإنما نتحاور بالكلمات التي تكون جارية أحياناً، ولكنها في النهاية تبقى كلمات.

٢ - سلبيات النهضة في الحكم

■ لكن وُجهت لحكوماتكم أيضاً، سواء حكومة حامد الجبالي أو حكومة علي

العريض، انتقادات شديدة، منها ما وجهته مية الجريبي، الأمانة العامة لحزب الجمهورية، حين قالت في حوار في ٢٢ كانون الثاني/يناير إن النهضة فقدت الكثير من شعبيتها وخيبت آمال ناخبها. وكثيرون قالوا إن حكومة الجبالي كانت حكومة مرتعشة مشلولة لم تتخذ أي قرار يمكن أن يذكره التونسيون لها وعلى نهجها صارت حكومة علي العريض.

□ من المنتظر أن ينعث المعارض الحكومة في أي مكان في العالم. لكن حين نحكم على أداء ومنجزات هذه المرحلة نذكر الأهداف؟ فما هو هدف المرحلة الانتقالية؟ هو الوصول بتونس إلى بر الأمان حيث يكون لها دستور وهيئة انتخابية مستقلة وموعد انتخابات وحكومة محايدة، وهذا كله وصلت إليه حكومة النهضة، والدليل على ذلك أن رئيس حكومتنا وقّع هذا الدستور، بمعنى أنه أنجز المهمة، أنجز ما وعد به.

■ **قل لي بشفافية بدلاً من أن أسرد لك الأمر: ما هي الأخطاء التي وقعت فيها حركة النهضة خلال حكمها لتونس، أريد جواباً شافياً كافياً للناس؟**

□ نحن حكمنا تونس مدة سنتين، وكانت لنا أخطاء كما كانت لنا إنجازات. ونحن الآن بصدد تقويم هذه التجربة للوقوف على ما فيها من منجزات إيجابية وما فيها من أخطاء. ومن الأخطاء أننا كنا نتمنى أن لا تكون المرحلة الانتقالية محكومة بآلية سلطة ومعارضة، لأن هذه الآلية تصلح في الديمقراطيات المستقرة، أما في المراحل الانتقالية كالمرحلة التي مرت بها تونس فلا حاجة إلى هذه الآلية وإنما إلى حكومة وفاق وطني. ولو أدركنا نحن والمعارضون الآخرون أن المرحلة هي ليست مرحلة حكم ومعارضة وإنما مرحلة إنجاز دستور ومرحلة تأسيس للديمقراطية فلربما كانت خسائرها أقل وكانت تكاليف الانتقال أقل وكان التجاذب بين السياسيين أقل، لأنه من المفترض أن تكون كل الأحزاب مشاركة في الحكومة. لكن على أي حال، نجحنا في أن نحكم وفق ائتلاف ثلاثي يضم الإسلاميين الذين نعتبرهم معتدلين ممثلين بالنهضة وبين حزبين كبيرين علمانيين معتدلين. وهذا إنجاز لنا؛ لكن هذا الائتلاف كان يمكن أن يتسع ليشمل بقية الأحزاب وأهمها، فنحن لم نصبر بالقدر الكافي، فلو صبرنا بالقدر الكافي على الآخرين وقدمنا المزيد من التنازلات لكان التجاذب أقل ولكانت الخسائر أقل، ولكن الحمد لله على كل حال، ما فعلناه إنجاز.

■ **أنتم متهمون بأنكم لم تحققوا العدالة الانتقالية بصورة كافية، وتركتم الأطراف الأخرى تلعب، ولم تتخذوا قرارات ناجزة في هذا الموضوع، ولم تحققوا مشروعات اقتصادية ناجحة يلمسها التوانسة على الأرض، وجعلتم الوضع غير مستقر، وكان اختياركم لأعضائكم الذين شاركوا في الحكومة دون المستوى إلى حد كبير، بغض النظر عن إنجازات بسيطة قاموا بها.**

□ على أي حال، الحكم وفق الآليات الديمقراطية على منجزات أي حزب حاكم في النهاية يكون عبر صناديق الاقتراع، فحين نذهب إلى صناديق الاقتراع بعد بضعة أشهر سنحتكم للشعب التونسي وهو سيحكم: هل النهضة قادت ووفت بما وعدت أم أنها أخلفت بما وعدت.

■ **أنتم متهمون أنكم عينتم الآلاف من كوادر النهضة في المناصب المختلفة وهناك شخصيات متهمة بالفساد وينظر إليها على أنها أساءت إلى النهضة ولا سيما من بعض الولاة، هل ستكررون التجربة نفسها في المرة القادمة وتختارون الناس أنفسهم وتكررون الأخطاء نفسها؟**

□ نحن لسنا ملائكة، وكل من ثبتت إدانته من القضاء فهو حري بأن يعاقب. نحن لا ندافع عن فاسد وحكومتنا لم تكن حكومة فاسدة، بل قاومت الفساد. صحيح أنها تأخرت في إقامة العدالة الانتقالية حتى أعد قانون وحتى مرر هذا القانون إلى المجلس الوطني التأسيسي، فتم التأخر في المحاسبة. ولكن هذه الحكومة لم تكن حكومة فاسدين بل كانت حكومة محاربة للفساد بالقدر المتاح خلال المدة الزمنية المتاحة.

٣ - انقلاب سياسي على النهضة

■ هناك من يقول إنه أطيح بالإخوان المسلمين من حكم مصر بانقلاب عسكري وأطيح بحركة النهضة في تونس بانقلاب سياسي.

□ والله إذا كان خروج النهضة من السلطة أعطى التوانسة الدستور وأعطاهم هيئة انتخابية مستقلة ووضع القطار، قطار تونس، على السكة ليتجه إلى المرفأ، مرفأ الديمقراطية لتعزز تونس كسبها من إطلاقها نموذجاً للثورة السلمية ونموذجاً للتحوّل الديمقراطي عبر ما نسميه حكم التوافق والديمقراطية التشاركية... فإذا كان كل هذا تحقق للوطن، فلم يعد هناك من مشكلة أن تخرج النهضة من السلطة.

■ ألا تعتقد أن شرعية السلطة شرعيتان: شرعية تُوصل إلى الحكم وشرعية تبقى في الحكم؟ يعني أن الناس يصوتون ويمنحونك الثقة حتى تصل إلى الحكم، فإذا لم تحقق رضا الناس في فترة وجيزة...

□ نحن لم نُسحب منا الثقة قلنا إن هذا يظهر خلال الانتخابات القادمة، إلى أي مدى نحن وفقنا في الاحتفاظ بشعبيتنا. أما استطلاعات الرأي اليوم في تونس فكلها تؤكد أن النهضة حافظت على كتلة انتخابية ثابتة تحوم حول ثلث الوعاء الانتخابي التونسي وهذا غير قليل، هذا الثلث يزيد أو ينقص. ولكن هذا أمر ليس قليلاً بالنسبة إلى حزب حاكم في ظروف انتقالية أن يحتفظ بكتلة انتخابية لا تقل عن ثلث الناخبين

■ الشيخ راشد، قل لي بصراحة: هل خسرت أم كسبتم في إدارتكم للدولة وحكمكم لتونس ما يقرب من عامين، وما هي المكاسب التي اكتسبتموها؟

□ المكاسب التي كسبناها هي أننا قدنا بلادنا إلى بر الأمان، قدنا بلادنا إلى أن يكون لها دستور وهيئة انتخابية وأن نضع قطار تونس على سكة الديمقراطية. وهذا أكبر مكسب لتونس وللنهضة. وهذا أمر تحقق بشكل متميز، ففي الوطن العربي اليوم لم نجد تجارب أخرى غير هذه التجربة الناجحة في الحوار الوطني والوفاق الوطني والديمقراطية التشاركية بدلاً من الديمقراطية الصراعية.

٤ - تكرار التجربة المصرية في تونس

■ ألا تخشون أن يتكرر السيناريو المصري في تونس؟

□ لا، لن يتكرر لأسباب كثيرة، من أهمها أن المنتظم السياسي التونسي لا يحتل الجيش فيه موقعاً سياسياً فاعلاً، فالجيش يحمي حمى الوطن ولا يصارع على السلطة. والجيش التونسي جيش محترف، أما الجيش في مصر فقد ملك البلد على مدى ستين سنة. أضف إلى ذلك أن المجتمع التونسي من أكثر المجتمعات العربية انسجاماً، فتركيبته المجتمعية من دين واحد وعلى مذهب واحد، وعرق واحد، بحيث إن الانسجام في المجتمع التونسي انسجام واسع، وهذا ما يجعل الاختلافات لا تأخذ شكل معسكرات.

■ لكن أي منحى تتخذ الخلافات؟ أنا شاهدت اليوم الباجي قائد السبسي في ندوة تنظمها حركة نداء تونس حول الدين وثقافة الديمقراطية، فلو أننا شطبنا اسم الباجي قائد السبسي ووضعنا اسم راشد الغنوشي فسنجد أن الخطاب واحد، آيات قرآنية. لا يوجد مثلاً أي تعارض في كلام السبسي بين الإسلام وفكرة الدولة... وهذا ينطبق على كلام حركة النهضة أيضاً. فلماذا لا ينضمون إلى حركة النهضة إذاً؟

□ على أي حال، إنه لأمر إيجابي أن يقع تقارب في الخطابات التونسية. ويسعدنا أن يتحرك الخطاب السياسي التونسي على أرض مشتركة يمثل الإسلام فيها المقوم الرئيسي كما يشهد الدستور بذلك، بحيث نحن لا نتأذى من مزيد من التدين في الخطاب التونسي لأن التونسيين كلهم مسلمون. إن الإسلام ليس محل نزاع في تونس وليس محل احتكار؛ والنهضة لم تعلن يوماً أنها تحتكر الإسلام. لذلك، إذا أردت رفض الخطاب الإسلامي في حزب معارض يعني أنك تشعر بالغيرة وتشعر أنك أُوذيت. ثم إن مستوى التدين في تونس اليوم هو أعلى مما كان في السابق، وعدد المصلين في المجتمع التونسي أكثر مما كان في الخمسينيات والستينيات. هذا لا يعني أن الناس كانوا كفاراً في الستينيات، ولكن مستوى التدين هو في ارتفاع وهذه هي حالة أو جملة من الحالة التي تسود الأمة.

٥ - أيادٍ خارجية وراء زرع الفتنة

■ أما تعتقد أن الأيدي الخارجية التي تعبت في ما يجري في مصر وسورية وليبيا واليمن هي نفسها ليست بعيدة من تونس؟ بمعنى هل أنتم متفردون مثلاً بالعمل لأن هناك من يدعكم تعملون؟

□ مع اختلاف نسبي.

■ تقصد أن العبث الخارجي موجود؟

□ مع اختلاف نسبي، فالجغرافيا لها دور.

■ كيف؟

□ لا يمكن أن تفصل السياسة عن الجغرافيا، وجغرافية مصر مرهقة لها. فوزن مصر في المنطقة يجعل من أي تغيير في مصر مهدداً للتغيير في العالم، وبالتالي سيعني التصدي والرفض لأي تحول من هذا القبيل؛ أما تونس فلا تحتل هذه المنزلة التي يحتلها الموقع المصري، وموضوع الصراع في المنطقة أيضاً يعني هذا كله. وهذه خصوصية منطقة الشرق الأوسط وخصوصية مصر. لذلك تتحمل مصر اليوم تكاليف موقعها ودورها القيادي في أمة العرب وموقعها في العالم.

■ لكن الخرائط واحدة كل المنطقة مربوط بعضها ببعض الآخر.

□ الخرائط واحدة لكن كل واحد يقع في طرف والآخر يقع في القلب وهما بالتالي لا يستويان.

■ حركة النهضة حركة إسلامية مغلقة وحكمت بوصفها حركة مغلقة، جاءت من المنافى ومن السجون وما زالت لا تتيح للآخر الانخراط فيها. إذا كنتم تتطلعون إلى حكم تونس مستقبلاً والمنافسة في الانتخابات القادمة، فهل ستظلون حركة مغلقة أمام عامة التوانسة للدخول والانتماء إليها؟

□ نحن حركة إسلامية منفتحة على العالم وعلى خير ما في العالم، فهكذا هي جغرافية تونس، إذ إن ٩١ في المئة من سكان تونس يقعون على البحر المتوسط، وبالتالي هم منفتحون على العالم. لكن التوانسة بقدر ما هم منفتحون على العالم هم متمسكون بكونهم مسلمين وبكونهم عرباً. لذلك المعادلة هي دائماً كيف تستطيع أن تجد هذه الزيجة بين وضع جغرافي يدعو إلى الانفتاح وبين شعب متمسك بهويته العربية والإسلامية. منذ القرن التاسع عشر تنبّه المصلحون التونسيون إلى أن الضفة الأخرى من المتوسط استفاقت وتقدمت وأنهم ظلوا متأخرين ومهملين بالاحتلال؛ ومنذ ذلك الوقت كان تقييمهم أن الغرب إنما تقدم بسبب الحكم المقيد بالقانون بينما نحن تأخرنا بسبب الاستبداد وحكم الإطلاق، لذلك كان الموضوع الأساسي الذي يدندن حول المصلحين هو كيف نقيد سلطة الحاكم بالقانون؟ كيف نخرج السلطة؟ كيف نجعل الفرق بين الحاكم والسلطة؟ فلا يتماهى الحاكم بالسلطة ويحسب نفسه ظل الله على الأرض والناطق باسم القانون وباسم الوطنية. وأرى أن الثورة التونسية كان هذا هو جوهرها، وهذا الدستور هذا هو جوهره: تونس المنفتحة على العالم والمتمسكة بشخصيتها العربية - الإسلامية والتواقة إلى العدل الاجتماعي.

٦ - إمكان الترشح للانتخابات الرئاسية

■ يؤخذ على الحركات الإسلامية أن قادتها يبقون بعيدين من السلطة ويضعون آخرين في الحكم، ويظل الإعلام يردد أن من هم في الحكم يدارون من جانب مكتب قائد الحركة أو مرشدها. ألا تنوي خوض غمار السياسة بصورة مباشرة وتتولى مسؤولية الحكومة أو الدولة إذا قررت النهضة خوض الانتخابات أم ستبقى في موقع المرشد العام؟

□ يبدو أن الوقت متأخر.

■ ليس هناك وقت متأخر.

□ بلى.

■ الباجي قائد السبسي ما شاء الله عمره ٩٢ سنة وهو يريد أن يبقى رئيسكم.

□ هذه ثورة شباب، الثورة التونسية ثورة شباب، والمطلوب والأصل والواقع، كل ذلك يقتضي أن يتصدر الشباب المشهد، وأن يتقدم أكثر إلى المشهد، بدلاً من أن تبقى الرؤوس البيض أو المجردة من الشعر أصلاً هي المتصدرة للمشهد. صحيح أن هذه عادة تُنعت بالحكمة، ولكن هذه ثورة شباب ولو ظل الأمر عند حكمة الشيوخ فما قامت ثورة في البلاد.

■ لكن لم تقدموا شباباً إلى الحكم بل قدمتم شيوخاً وتعرّض أداؤهم لانتقادات كبيرة.

□ قدمنا شباباً وكهولاً، ونحن نشجع الشباب لكي يحتل مواقع أكبر، في السياسة عموماً، سواء في المجلس الوطني التأسيسي أو في الأجهزة التنفيذية. قدمنا شباناً وشابات وكهولاً ونتوق إلى تقديم نسبة أكبر من الشباب.

■ لماذا لم تفتحوا الباب أمام عموم التوانسة للالتحاق بحركة النهضة، ولا سيما أنكم أصبحتم حزباً سياسياً وليس حركة إسلامية مغلقة؟

□ هي مفتوحة، هي حركة لكل الناس. لا شك أن هناك تقاليد للعمل الحزبي في المرحلة السرية، فنحن أمضينا ثلاثين سنة في العمل السري. ولا بد من أن نكسر هذا الطوق وأن نثق بالناس أكثر. لا شك أن هذا مطلوب، لأن السنوات الثلاثين تركت آثاراً نفسية في هؤلاء الذين كان مطلوباً اختراقهم من أجهزة الأمن وكان من الطبيعي أن يتعاملوا مع الناس بحذر وبقدر من الشك.

■ لماذا لا ترسخون هذا التوجّه الآن، إذ لا يزال الكثيرون من قادة الحركة مغلقين وينظرون إلى الآخرين بريية؟

□ أقول أحياناً إن الفرق بين الداعي والنبي والسياسي وبين الشرطي والمحقق هو أن الشرطي أو المحقق مهمته تقتضي أن يشك في الناس حتى يثبت العكس، بينما المطلوب من الداعي والسياسي والنبي الثقة بالناس. الأصل هو أن الناس طيبون طاهرون إلى أن يثبت العكس. ونحن نحتاج إلى التحرر من آثار المرحلة السرية وما تركته فينا من تشوهات حتى نثق بالناس أكثر، فهذا الشعب الطيب هو من أنجز هذه الثورة، وهذا شعب عظيم ويحتاج إلى كل تكريم وتقدير وأن يكون محل ثقة.

٧ - انشقاقات داخل الحركة

■ لكن يوجد تيار داخل النهضة يقاوم هذا الطرح الذي تطرحه أو لا يستطيع التعايش معه.

□ النهضة ليس فيها من كل ذلك، بل فيها تفاعلات كبيرة، ففيها من يدفع إلى الأمام ومن يشد إلى الوراء لنصل في النهاية إلى حلول وسطى.

■ كونك من زعماء الحركات الإسلامية الذين درسوا الفلسفة ودرست الشريعة في الوقت نفسه، درست في السوربون في الغرب ودرست في دمشق في المشرق ودرست في تونس، وفي القاهرة أيضاً، فنوعت ثقافاتك المختلفة، فهل انعكس هذا التنوع على فكر الحركي؟

□ بالتأكيد.

■ لماذا لا يتواكب هذا التطور مع الحركة؟

□ من لا يتطور؟

■ لماذا لم يتطور مع الحركة، لماذا الحركة جامدة؟

□ لا ليست جامدة، فالحركة قبلت الديمقراطية بألياتها الكاملة منذ سنة ١٩٨١، فمذ دخلنا الحياة السياسية دخلنا حاملين شعاراً واحداً هو الحرية لنا وللجميع، وتبنينا الآلية الديمقراطية بصورة كاملة، إلى درجة أنه خلال ندوة صحافية للإعلان عن الحركة، حين سئلنا: إذا اختار الشعب التونسي الحزب الشيوعي ماذا ستفعلون؟ قلنا سنقبل إرادة الشعب التونسي. وعندما منع الحزب الشيوعي في الأردن، فنحن أصدرنا بياناً دافعنا فيه عن حق الحزب الشيوعي في الأردن بأن تعترف به الدولة. لا ينبغي أن تمارس وصاية على الناس. والحركة تجسد هذا الانفتاح في تجربة حكم الائتلاف، في حكم الترويكا، فهي تتحالف مع حزبين علمانيين. ألا يعني ذلك أنها حركة منفتحة؟ حركة تحقق التناصف بين الجنسين في المجلس الوطني التأسيسي بين الرجال والنساء، نحن الكتلة الوحيدة التي نصفها رجال ونصفها نساء.

■ البعض يري في ما تطرحه الآن تنازلاً عن الثوابت الإسلامية مثل طاهر جبر.

□ من جهة يقال إننا جامدون، ومن جهة أخرى يقال إننا متنازلون عن الثوابت الإسلامية، فأين نحن؟

■ مفهوم الوسطية هنا كيف ينظر إليه الناس؟

□ يُنظر إلى الحركة الإسلامية عموماً على أن فيها تياراً وسطياً، وهو ليس خاصاً بالنهضة، وإنما هو التيار العام في الحركة الإسلامية؛ فما معنى وسطية؟ معناها أنه لا يحتكر الإسلام ولا يحسب نفسه ناطقاً باسم الإسلام، وهو يرفض العنف طريقاً للوصول إلى الدولة وللبقاء فيها، ويعترف بالتعددية السياسية كاملة غير منقوصة. هذا هو مشهد من الاعتدال، وهو الغالب على الحركة الإسلامية. وأنا أرى أن النهضة هي مؤسس رئيسي لهذا التيار الاعتدالي الذي يراهن على حكم القانون وعلى حكم الديمقراطية وعلى تعددية لا تقصي أحداً وعلى وطن يتسع لكل أبنائه وبناته من دون إقصاء.

■ ماذا قدمت الحركة التي تنعت نفسها بالإسلامية من خدمة إلى الإسلام والمسلمين

والشريعة خلال فترة حكمها؟

□ كان إسهامنا في هذا الدستور إسهاماً عظيماً. قبل مجيء النهضة إلى الحكم كانت الصلاة علامة تمييز في تونس، فالذي يصلي كان يتهم بأنه إخوانجي ويتهم بأنه أصولي، إلى درجة أن عدداً من الموظفين تخفوا بصلواتهم، الشعب التونسي يبقى مسلماً، لكن الكثير من الموظفين ورجال الدولة كانوا يتخفون بإسلامهم والحجاب، فالحجاب كان ممنوعاً بالقانون، لكن تحت حكم النهضة لم يُفرض الحجاب ولكن مُنع حظره وأصبح الحجاب حقاً من حقوق التونسية، تتحجب، تتنقب، أو لا تتحجب، هذا حقها. هكذا وفرنا الحرية لكل التونسيين، والمسجد لم يعد تحت وصاية الدولة، المسجد أصبح حراً ولكن في إطار القانون، بحيث لم تعد منابر المساجد لدعاية الحزب الحاكم وإنما أصبحت بيوتُ الله حرة. كثير من الناس يتجاهلون هذا ويريدون منا أن نفرض الإسلام، أي أن نفرض على المجتمع التونسي نمطاً معيناً. نحن لا نرى أن فرض الإسلام هو من مهمة الدولة، فليس من مهمة الدولة أن تفرض أي نمط على المجتمع، مهمة

الدولة أن تحفظ الأمن العام وتحفظ العدل وتقدم الخدمات إلى الناس. أما من يريد أن يصلي فليصل، ومن تريد أن تتحجب فلتتحجب، ومن يريد أن يسكر فليسكر. هذا متروك للناس.

■ هل هذا مفهوم راشد الغنوشي أم مفهوم حركة النهضة؟

□ هذا مفهوم حركة النهضة، هذه هي حركة النهضة، هذا ليس مفهومي أنا. هذا ما طبقناه. فخلال سنتين من وجودنا في الحكم لم يُفرض على امرأة ارتداء زيٍّ معين، وخلال هاتين السنتين استقبلت تونس سبعة ملايين سائح لم يُفرض على أي منهم نمطاً معيناً من الحياة، لأن ذلك ليس من مهمات الدولة، مهمة الدولة أن تحفظ الحرية في البلد وأن تحفظ الأمن وأن تقدم الخدمات إلى الناس، لا أن تفرض عليهم. نحن واضح في ديننا أن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]؛ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]؛ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]؛ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣]، وفي النهاية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. هذا هو ديننا، فما هو دين إكراه ودين قمع، الإسلام عرفه رجلان مهمان معاصران في الحركة الإسلامية، هما السيد قطب رحمه الله وأبو الأعلى المودودي. عرفاه بأنه ثورة تحريرية شاملة. وجاء في سورة الأعراف ﴿وَجِئِلْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ [الآية ١٥٧]، فمهمة النبوة ومهمة الرسالة تحرير البشر من الاستعباد ومن القهر ومن ضغوط المال ورأس المال ومن أي ضغوط تُحرم الإنسان حريته. لذلك مسألة الحرية مسألة أساسية لنا.

■ حتى في ظل الحكم الإسلامي يُترك للناس حريتهم في ما يفعلون.

□ نعم يترك، لم لا؟ لا قيمة لأي سلوك ديني يأتي من طريق إكراه الدولة، ما قيمة حجاب تفرضه الدولة؟ لا قيمة له دينياً، إنما الأعمال بالنيّات، فإذا كان هذا التحجب غير صادر عن نيّة التقرب إلى الله والخوف منه فلا قيمة له، فهو نفاق. وكذلك الصلاة، وكذلك الزكاة والحج. كل عمل لا ينطلق من حرية الإنسان لا قيمة له عند الله سبحانه وتعالى، وبالتالي لا قيمة له في هذه الدنيا. إن كل عمل لا يُبتَغى به وجه الله فلا قيمة له، حتى صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. إن شرط العمل الصالح أن يُبنى على نية صادقة وأن يُبنى على علم صحيح، أما أي ممارسة تتم تحت الإكراه والضغط فلا قيمة لها.

■ هل هذا يعني أن الحكام في تاريخ الدولة الإسلامية لم يتدخلوا في حياة الناس

وكان هناك سكر وغير ذلك؟

□ كان الأمر كذلك دائماً. الذين يتصورون أنه في تاريخ الدولة الإسلامية كان الناس تقاة كلهم على قلب رجل واحد فهذا تاريخ خيالي، تاريخ خيالي؛ أما في التاريخ الواقعي فقد كان الناس فيهم الأخيار وفيهم الأشرار وفيهم الصالح وفيهم الفاسد، وفيهم بين ذا وذاك. هذه طبيعة الناس، أما الدولة فمهمتها أن توفر المناخات الملائمة التي تجعل معرفة الله ميسورة وعبادة الله ميسورة؛ ولكن عدم طاعة الله تبقى مفتوحة دائماً.

■ في ظل الدولة الإسلامية أعمال الفجور تكون مستترة.

□ أنا أقول إن دولنا هذه دول إسلامية وليست دولاً كافرة، دولنا هذه إسلامية ما دامت دساتيرها تعلن في بنودها الأولى أننا إزاء دولة إسلامية، ومدى التطبيق هذا يرتبط بمستوى وعي الناس؛ فمهمة وطبيعة الدولة تتحدان بدستورها. دساتير دولنا تنص على أن هذه الدول دول إسلامية، أما مستوى التطبيق فهذا يعود إلى مستوى وعي الناس.

■ ومسؤولية الدولة أن ترتفع بمستوى الوعي.

□ من الذي يرفع مستوى وعي الدولة؟ هم الناس؛ فبقدر ما يرتفع وعي الناس يختارون مدراء جيدين. وما الذي يمنع هذا الخيار؟ إنها الدكتاتورية. لذلك، العدو الأكبر للإسلام هو الدكتاتورية؛ فإذا أزعجنا الدكتاتورية من طريق الإسلام سينتشر الإسلام وسيُبدى الناس أكثر مما نتوقع، لأن الناس لا يزالون مسلمين والذي يحول بينهم وبين أن يعبروا عن دينهم وأن يعيشوه هو الاستبداد.

■ حين كنتم في السلطة كان الجميع يغلق أبواب التمويل عن تونس؛ وبعدما خرجتم من السلطة فُتحت الخزائن. فهل عودتكم إلى السلطة مرة أخرى يمكن أن تؤدي إلى إعادة إغلاق تلك الخزائن؟

□ ليس الأمر كذلك؛ لم يُنظر إلى النهضة بوصفها عامل تحارب بين تونس وجيرانها وبين تونس والغرب. النهضة لا ينظر إليها هذه النظرة، فهي عامل استقرار في البلاد وعامل وحدة وطنية، لا عامل تشتت وحروب أهلية. لماذا الآن؟ لأن تونس عاشت أشهر صيف ساخن جداً، بل عاشت صيفاً حارقاً، وكاد المشروع الديمقراطي يحترق في تونس. لذلك أصبح الوضع غائماً حينذاك، وبخاصة بعدما توقف الحوار الوطني، الأمر الذي دفع شركاء تونس إلى الانكماش بانتظار أن يروا كيف ستسير الأمور، وعن ماذا ستسفر. فحين أسفرت الأجواء عن شمس مشرقة عن نجاح ديمقراطي مهم بإصدار هذا الدستور و بانتخاب حكومة محايدة اطمئن الشركاء إلى أن في تونس استثناء وأن في تونس تحولاً ديمقراطياً يستحق أن يدعم.

٨ - تقسيم تونس إلى ٣ إمارات

■ يلاحظ الآن أن هناك تضخيماً ونوعاً من الاستغلال والمتاجرة في موضوع الإرهاب في تونس، حتى من جانب المسؤولين، ومنكم أنتم أيضاً في حركة النهضة. وزير الداخلية التونسي مثلاً في تصريحات له قبل أيام، في شباط/فبراير الجاري، قال إن الأجهزة الأمنية أحبطت مشروعاً إرهابياً كبيراً ضد تونس يتمثل بإقامة ثلاث إمارات إسلامية كبرى، أليس المطلوب احترام عقول الناس؟ من يستطيع تقسيم تونس ويقيم فيها ٣ إمارات إسلامية ويحكمها؟ يعني أن هناك نوعاً من الاستغلال ونوعاً من مخاطبة الغرب ونوعاً من تشويه الإسلام، فالإسلاميون المتشددون هم بضع عشرات، فلماذا هذا الخطاب، حتى أنتم في النهضة كنتم تستخدمون الطريقة نفسها؟

□ على أي حال وزير الداخلية التونسية رجل محترم ويعرف عما يتحدث. هناك خطر إرهابي فعلاً، وقد أودى بحياة عشرات من التونسيين. صحيح أن تونس هي ليست كأفغانستان وليست كالعراق.

■ لكن أنت تحتاج إلى كم ألف رجل لكي تقسم الدولة وتقيم فيها ثلاث إمارات؟

□ نعم، لكن لا ننس أن هناك زعماء سياسيين تم اغتيالهم ونحن نترحم عليهم، كما أن هناك جنوداً وأن هناك شرطة وضباطاً ورجالاً أيضاً.

■ هل الإرهاب في تونس في هذا الحجم الضخم الذي نتحدثون عنه؟

□ لا ينبغي أن نهوّن ولا نهوّل، ما دام هناك ضحايا لهذا الإرهاب، ضحايا من زعماء سياسيين ومن جنود وضباط ومواطنين عاديين، فهناك خطر قائم. صحيح أن هذا الخطر مرتبط بوضع إقليمي فيه انفلات كبير وتهريب أسلحة، ولكن على أي حال هناك خطر ومطلوب مواجهة هذا الخطر بدلاً من أن يُستخدم استخداماً سياسياً كما ذكرتم، بحيث إن كل واحد يحاول أن يلقي بعبء هذه المصيبة على الآخر. بدلاً من ذلك يحتاج الإرهاب إلى صف وطني متماسك ليس فيه استغلال انتخابي، وهناك بعض الجهات الآن تريد استخدام هذه المصيبة انتخابياً إلى درجة أن يقال إن النهضة هي التي فرخت الإرهاب. ليس هناك متضرر من الإرهاب مثل النهضة. فحكومتنا، أي حكومة الجبالي وحكومة علي العريض، أسقطتهما الإرهاب لذلك ليس هناك متضرر أكثر من النهضة من الإرهاب. لكن البلد كله متضرر من الإرهاب ومطلوب من الجميع لا أن يتركوا الأمر لمواجهة على المستوى الأمني فقط بل أن يقفوا إلى جانب رجال الأمن - وهنا نحیی رجال الأمن وشهداء الأمن والجيش - فيقف المربون ويقف الصحفيون تقف المساجد في وجه هذه المصيبة لتعرية هذا الإرهاب وعدم إعطاء أي غطاء أو أي مبرر له، فالإرهاب ينبغي أن يدان وأن تشن عليه حرب، لكن هذه الحرب ينبغي أن تعطي فرصة للحوار، كما حصل في بلاد أخرى، ففي موريتانيا والمغرب والجزائر وليبيا السابقة، وفي مصر نفسها، حصل حوارات. حصلت حوارات في غياهب السجون، وفي غيرها، حتى يتنبّه هؤلاء المغرر بهم، هؤلاء الفتية الذين حظهم من العلم الشرعي ومن العلم السياسي قليل.

■ باختصار، قل لي كيف تنظر إلى مستقبل تونس؟

□ كنت دائماً متفائلاً، واليوم يحق لي أن أكون أكثر تفاؤلاً من ذي قبل، لأنني أرى قطار تونس اليوم سائراً على السكة، والتوانسة مرتاحون. لكن ذلك لا يعني أنه ليس ثمة من أخطار، بما فيها خطر الإرهاب، واستمرار حالة البطالة وسط مئات الآلاف من التوانسة، كما أننا نحتاج إلى مزيد من التدريب على الحرية، أي نحتاج إلى مزيد من التدريب على الديمقراطية، إذ لا تزال تجربتنا في الديمقراطية حديثة، فلا ينبغي أن نطمئن، لأن زهرة واحدة كما يقال لا تصنع الربيع. هناك انتخابات واحدة أجريناها صحيحة، لكن نحتاج إلى أن نُجري أربع أو خمس دورات انتخابية تكون كلها نزيهة ويشارك فيها الجميع. بذلك نطمئن إلى أن تونس أصبحت دولة ديمقراطية وأنه لم يعد هناك استثناء يسمى الاستثناء العربي ما دامت النبتة الطيبة للديمقراطية نبتت وأزهرت في تونس فلم لا تنبت وتزهر في بقية البلدان العربية.

■ الشيخ راشد الغنوشي شكراً جزيلاً لك على هذا الحوار.